

هَلْ كَانَتْ الْعَرَبِيَّةُ لُغَةُ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ؟

الأستاذ علي الخطيب ، مجمع بحوث إسلامية ، القاهرة

صفحات عدة من هذا السفر العظيم (1)، نوجز تلخيصه وتحديد موضوعاته فيما يأتي :

1 - تحدث عن الشخصيات الطاهرة التي نزلت مكة وقت كان ليس بها أحد ولا ماء ، وهم : الخليل إبراهيم ، وهاجر وإينهما الرضيع اسماعيل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

2 - نبي زمزم لهاجر وولدها .

3 - قدوم بطن عربي جرهمي واستئذانه هاجر في السماح له بالإقامة في مكة راضين بشرطها « الا حق لهم في الماء » ، وأستقدموا اهلا لهم ، وقد شب اسماعيل عليه السلام بينهم ، وتزوج منهم مرتين .

4 - زيارات ثلاث لل خليل الى مكة لوديعته - مدا الاولى التي قدم فيها بأهله اليها ، وكان آخرها تلك الزورة التي بنى فيها البيت مع ولده - عليهما الصلاة والسلام - وأمر فاذن في الناس بالحج .

وهذا الحديث الشريف يعطي حقائق موضوعية هامة توضح بعض ما غاب عن التاريخ في منهجه الحديث :

اولها : بيانه الواضح من مبدأ تاريخ العمران في مكة ، والذين يعنون بتسجيل العصر التاريخي للامم القديمة ليس امامهم وثيقة أدق من هذا الحديث لبيان بدء العمران بمكة وارتباع الناس فيها وسكناهم بها ، فاذا كان الخليل - صلوات الله عليه - قد عاش

لغة خليل الرحمن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - شغلت الباحثين من علماء الأديان في العصر الحديث ، وبخاصة بعض الذين يهمهم أن ينحرفوا ببحوثهم في اتجاه معين مسبوق بتخطيط ينسوخ بسببه العرب من صلتهم بال خليل ، على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام .

واذكر ان الاستاذ عباس محمود العقاد - رحمه الله - قد وضع كتابه : « ابو الانبياء : الخليل إبراهيم » و « الثقافة العربية اسبق من ثقافة اليونان والعبريين » وتصدى فيهما لهذه القضية واستطاع أن يرد الى نحر المنحرفين سهامهم . وتبع - رحمة الله عليه - منهج «تقصي الحقائق» في بحثه الذي اشتمل عدة مناهج تلاقت نتائجها في النهاية عند حقائق مشيرة تثبت صلة إبراهيم الخليل الوثيقة بالعبودية في وقت مبكر يقع بين القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد .

ونحن نقصر هنا - مستعينين بالله - على منهج « الحديث النبوي الصحيح » في الكشف عن لغة خليل الرحمن ، فان السنة المطهرة قد استقام بها كثير من حقائق التاريخ والكون حين تعرض لها رسولنا الكريم المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وقد ساق الامام البخاري رضي الله عنه في صحيحه حديثا ، رواه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ابان عن امر الخليل بمكة وافاض فيه حتى ليكاد يكون الحديث الوحيد الذي استوجب

(1) صحيح البخاري 172/4 مطابع الشعب بالقاهرة 1378 هـ

بين القرنين السالفين من قبل الميلاد ، كان ذلك يعني ان هذه الفترة مبدا دخول مكة عصرها التاريخي .

ثانيها : يوضح هذا الحديث الشريف في جلاء نادر « حلقة مفقودة » لدى المؤرخين الذين توصلوا الى ممالك الاسماعيليين في شمال الجزيرة مثل : تيماء ، ودومة الجندل وغيرها ، دون ان يصلوا - عن طريق منهجهم - الى «مهاد» هذه الرؤوس الشريفة من ابناء اسماعيل ، اعني الصدر الاول من ابناءه لا احفاده ومن بعدهم ، فقد ظلت هذه المهاد حلقة مفقودة الا في هذا الحديث ، فهو وحده الذي يقدمها عبر ضوء شديد ينير من حولها كل السبل ويقطع بان الاسماعيليين صعدوا من الجنوب (مكة) فامتلكوا في الشمال (اعالي الجزيرة) وليس العكس.

ثالثها : لغة خليل الرحمن - على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام ، وهنا يعني ان نتحدث عنها وحدها دون ان نتعرض للغة اسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وذلك الامر واحد ، هو ان اسماعيل نشأ رضيعا في قبيلة جرهم وتلقى العربية عنهم ، وفي هذا الحديث الشريف جاء عنه .. « وشب الغلام وتعلم العربية منهم وانفسهم واعجبهم » لذلك نريد ان نتحدث عن لغة خليل الرحمن وحده ، وهو الذي لم يقطن مكة ولم يجاور جرهم الا سويعات في الزيارة الثانية والثالثة ، ومدة بناء البيت في الرابعة . اما الاولى فلم يكن بمكة يومئذ احد وربما لم يمكث فيها ساعة من نهار ، وها هو الجزء من الحديث الخاص بها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما عن «هاجر» - عليها السلام : ثم جاء بها ابراهيم وبانها اسماعيل - وهي ترضعه - حتى وضعها عند البيت عند دوحه فوق زمزم في اهل المسجد ، وليس بمكة يومئذ احد ، وليس بها ماء ، فوضعها هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته ام اسماعيل ، فقالت : يا ابراهيم ! اين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه انس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت اليها ، فقالت له : آله الذي امرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : اذا لا يضيعنا . ثم رجعت . »

ولا يمكن ان يقال : ان ابراهيم مكث شيئا ذا بال بمكة ، انه ما ان وضعها حتى انطلق راجعا ، وبالتالي ما كان فيها من احد لغير اهله .

ولما كانت الزيارتان الثانية والثالثة كلاهما ذا اهمية في الموضوع نسوقهما لتعرف منهما : ما لغة

خليل الرحمن عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام ؟ وكلتاها كانتا بعد زواج اسماعيل صلى الله عليه وسلم . واسماعيل تزوج مرتين من قبيلة جرهم العربية ، قال :

« فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد اسماعيل ، فسأل امراته عنه ، فقالت : خرج يبغني لنا ، ثم سالها عن عيشهم وهيشهم فقالت : نحن بشر ، نحن في ضيق وشدة ، فشكت اليه ، قال : فاذا جاء زوجك فاقرني عليه السلام ، وقولي له : يغير عتبة بابي ، فلما جاء اسماعيل كانه آنس شيئا ، فقال : هل جاءكم من احد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا فسالنا عنك ، فاخبرته ، وسألني : كيف عيشنا ؟ فاخبرته : انا في جهد وشدة ، قال : فهل اوصالك بشيء ؟ قالت : نعم ، امرني ان اقرا عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك ، قال : ذلك ابي ، وقد امرني ان افارقك .. الحقي باهلك ، فطلقها »

هذه كانت الزيارة الثانية ، ويمكن ان يضع لها القاريء تقدير الوقت الذي استغرقته ، وهذه هي الثالثة .. قال :

وتزوج منهم (يعني من جرهم التي تزوج منها اولاً) اخرى ، فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ، ثم اتاهم بعد ، فلم يجده ، فدخل على امراته فسالها عنه ، فقالت : خرج يبغني لنا ، قال : كيف انتم ؟ وسالها عن عيشهم وهيشهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، واثنت على الله ، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرايبكم ؟ قالت الماء ، قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء

قال النبي صلى الله عليه وسلم : ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم دها لهم فيه ، قال : فهما لا يخلو عليهما احد بغير مكة الا لم يوافقاه ، قال : فاذا جاء زوجك فاقرني عليه السلام ومريه يشب عتبة بابي . فلما جاء اسماعيل قال : هل اتاكم من احد ؟ قالت : نعم ، انا شيخ حسن الهيئة ، واثنت عليه ، فسألني عنك فاخبرته ، فسألني : كيف عيشنا فاخبرته انا بخير ، قال : فاوصالك بشيء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك ان تشب عتبة بابك ، قال : ذلك ابي واثنت العتبة ، امرني ان امسكك . »

وتعيد لفت نظر القاريء الى النظر في قدر هذه الزيارة الزمني . ثم نلاحظ ان الخليل نسي كلتي

الزياريتين اعقبهما بالرحيل فلم يمكث بمكة مقدار شهر او اكثر حتى نقول : انه اخذ اللسان العربي ابان اقامته .

واذا كان من الحقائق الهامة التي يقدمها هذا الحديث الشريف ان زوجتي اسماعيل : الاولى والثانية من جرهم - اذ نص على ذلك حيث يقول عن الاولى : « فلما ادرك زوجوه امرأة منهم » وعن الثانية « وتزوج منهم اخرى » . - فهذا يعني ان كلا الكنتين هريبتان خالصتان ، ومن العسف ان يدعي مدع انها تعلمتا لغة اخرى غير العربية .

كذلك ثبت لنا ان خليل الرحمن - علي نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام - لم يمكث بمكة قدرا يلمه العربية ، وكان يخاطب كنتيه، وقد انفرد بكل منهما - دون ثالث يمكن ادعاء انه ترجم بين لسانيهما .

وهذا امر يعني - دون تردد - ان الخليل - صلوات الله وسلامه عليه - كان ذا لسان عربي مبين فما كانت «المخاطبة» بينهما - في كل مرة - كلمة عابرة تؤديها اشارة ، ولكنها حوار دار بين اخذ ورد انتهى بحكمه على كل منهما ، فواحدة كانت شؤم بيت زوجها والاخرى كانت حسنه وخيره

واذا كان الخليل - عليه السلام - ذا لسان عربي ولم يكن من اهل مكة ، ولا كان من اهل الجنوب (اليمن وما حولها) وكان من الشمال ، فهذا يعني ان العربية كانت مسيطرة - كلفة حياة ومعاش - في هذا الشمال الذي كان فيه الخليل وهنا نلتقي بالاستاذ المقاد - رحمة الله عليه - الذي يغطي بحثه نفوذ العربية القديمة في شمال الجزيرة حتى تخطت العراق وما كان الى غربه وشماله .

وحتى يتم لقاء «علمي» بين الحديث الشريف و « التاريخ » في منهجه الحديث ينبغي النظر في الهجرات العديدة التي تمت في العصر التاريخي لجنوب الجزيرة ، اعني منذ اربعة الاف سنة من قبل الميلاد ، فقد توالى هجرات منه الى الشمال في خطين . وامتلكت بعض هذه القبائل الشمال ودان لها ، وفي منتصف هذه الالاف الاربعة ظهر الخليل عليه السلام كعربي اصيل ، لانه منها ، ولانه يستحيل ايضا ان يدعو الى دين الله في قلب الجزيرة : ويؤذن للناس بالحج - وفي مقدمتهم جرهم القاطنة حول البيت - بلسان فير عربي، قال تعالى: «وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم (ابراهيم 4) والحج شريعة الخليل عليه السلام .

ولسنا نقول : انه عليه السلام تحدث بالعربية التي هي هريبتنا - اعني لغة القرءان الكريم التي بها انزل - لكنها عربية زمانه بفصاحتها ، وما من شك انها كانت وثيقة الصلة : اصولا وفروعا بعربية القرءان الكريم .

ولقد اوحى الى رسولنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ببعض دعائه في تعويذة كان يعوذ بها ولديه : اسماعيل واسحاق عليهما الصلاة والسلام ، فعوذ بها المصطفى - صلى الله عليه وسلم ولديه : الحسن والحسين ، فقال : اهيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة »

قد لا تكون هين الالفاظ ، لكنها العربية ، وليس الفرق بينهما الا ان الاولى عربية الخليل عليه الصلاة والسلام ، والاخيرة عربية المصطفى خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم .